نصوص روائية

سينالكو

الياس خوري

انحنى كريم شمّاس كي يلتقط حقيبته من صندوق سيارة المرسيدس العمومية السوداء التي أقلته إلى مطار بيروت في طريق عودته إلى مونبلييه.

كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف صباحاً، وفجر بيروت يتلوّن بالعتمة والغبار.

أمطرت أمس، جاء فصل الشتاء البيروتي محمولاً على صوت الرعد. اختلط الرعد بالقصف المتقطّع الذي كان يتجوّل في المدينة على غير هدى.

لم يستطع الرجل الذي دخل في الأربعين أن يغفو في ليلته البيروتية الأخيرة، شرب كثيراً من الويسكي، جلس على الكنباية في الصالون، تثاءب وانتظر الفجر على إيقاع الرعد والمطر.

احتفل بعيد ميلاده الأربعين وحيداً، غزالة اختفت في حكايتها، ومنى ذهبت تبحث عن مستقبلها في كندا، وكريم وحيد في منزله في بيروت. اتصلت برناديت من يومين، وطلبت منه أن يأتي في الرابع من كانون الثاني كي يحتفل مع عائلته

الياس خوري، كاتب وروائي من لبنان.

بدخوله العقد الخامس من العمر.اخبرها انه لم يجد مكاناً على الطائرة سوى في صباح اليوم التالي. تنحنحت زوجته الفرنسية وادّعت أنها صدقته، وأقفلت الخط.

جلس وحيداً، وقرر أن يعيد تأليف حكايته. صبّ كأساً من الويسكي، ووضع أمامه صحناً من اللوز المحمّص المملّح، ولفته العتمة. الكهرباء مقطوعة، وضوء الشمعة يرتجف ويحوّل الأشياء أشباحاً تتراقص على الحيطان، وكريم يشرب الويسكي من دون ثلج، ويشعر أن معدته تحترق.

أحس أن حياته تحولت مرآة متشظية، كذب كثيراً وكذبوا عليه كثيراً، لكن عودته إلى بيروت، والموافقة على مشروع شقيقه ببناء المستشفى، كان الخطأ الذي فضح حكايته كلها، وفككها، بحيث صار من الصعب لملمة شظاياها وإعادة شيء من اللحمة إلى العمر الذي تمزّق.

شرب الويسكي، وجلس ينتظر. كان متيقناً من أنها سوف تتلفن له. لكن التلفون بقي صامتاً، وهي لم تتصل. حين فكّر بها لم يكن متأكداً إلى من يعود الضمير. هل لا يزال في انتظار غزالة بعد كل ما جرى؟ أم ينتظر منى بعينيها المغمضتين وهي تغفو إلى جانبه، ثم تروي له حكاية حبها للرجل الإيطالي. يرى هند التي تخبئ خفرها خلف عينيها الرماديتين، بوجهها الأسمر الذي يستطيل بالحزن، ويتذكّر حباً قتله الخوف، قبل أن يصير سراً عائلياً لا يمكن الكلام عنه.

لفّته أصوات المدينة التي بدت على حافة السقوط في وادي العتمة. هكذا ارتسمت كلمات شقيقه أمامه، رأى المدينة على حافة الوادي وأحسَّ أن كلّ شيء ينزلق إلى هاوية لا قرار لها. قال نسيم إن الباخرة احترقت في عرض البحر، وإنه فقد كل ثروته دفعة واحدة، وإن مشروع المستشفى انتهى، لأنه مضطر إلى بيعها والى بيع البيت كي يسدد بعض ديونه.

لم يكن كريم ينتظر خبر سفينة البنزين الغارقة كي يعرف أن المشروع تهاوى، وأن عليه أن يعود إلى فرنسا، حاملاً معه الخيبة والفشل. عرف من غزالة أن كل شيء في بيروت هش وغير قابل للاستمرار، وفهم من حكاية موت والده نصري أن مشروع شقيقه لم يكن سوى وهم.

انتظر، لكنه لم يكن يعرف من ينتظر. حين يصير الحب انتظاراً للحب، يفتقد الإنسان القدرة على معرفة مشاعره. ما معنى هذه الحكاية التي وجد نفسه متورطاً فيها؟ لا، المسألة ليست ما يسمونه الخيانة الزوجية، فكريم لم يشعر مرة أنه يخون زوجته.

أقام علاقات عابرة مع ممرضات ومريضات فرنسيات ومغربيات، لكنه لم يشعر مرة بما يسمونه الخيانة. ربما لأنه لم يحب زوجته البيضاء يوماً، أو لأنه أحبها، لا يدري، لكنه هنا في بيروت لم يشعر سوى بسكاكين الخيانة. غزالة خانته مع عشيقها الفتى الميليشيوي الذي كان يحمل اسماً غريباً، ومنى خانته مع زوجها المهندس المعماري الذي قرر الهجرة إلى كندا، وهند خانته مع ذكرياته.

جلس في العتمة واسترسل في تأليف حكايته، حين فاجأه رنين جرس التلفون. امسك سماعة الهاتف وسمع صوت زوجته آتياً من مكان بعيد وعميق. جاء صوتها ليوقظه من انتظاراته الوهمية. صرخ آلو... آلو...، وانقطع الخط فجأة.

شعر بالجوع، أشعل قداحته ومشى إلى البرّاد، فتحه ثم أغلقه، شمّ رائحة عفونة التفاح، كل شيء يتعفّن في هذه المدينة التي لا تصلها التغذية الكهربائية سوى ثلاث ساعات في اليوم.

كان خلال إقامته الطويلة في فرنسا يحلم بالتفاح اللبناني، يمزج عطر التفاح برائحة البنّ، وينتشي بطفولته.

لم يفهم كريم معنى رائحة الطفولة إلا في الغُربة، كان يرى صورة والده الصيدليّ، وهو يفتح كفّه، يسكب ملعقة من البن، يضيف إليها نصف ملعقة من السكر، يمزجهما، ثم يبدأ في لحس هذا المزيج الغريب بلسانه. يغمض عينيه مترنّحاً أمام قهوة الكفّ كما كان يسميها، ثم يفتح البرّاد، يأخذ تفاحتين حمراوين ويعطيهما لابنيه، وهو يردد بيتاً من الشعر العربي القديم لأبي نواس، يمتدح فيه الشاعر العباسي رائحة تفاح لبنان التي لا يفوح الخمر الجيد إلا حين يشبهها:

« سلافُ دنٍ إذا ما الماء خالطها فاحتْ كما فاحَ تُفاحٌ بلبنانِ »

يمتزج فوح التفاح برائحة البن في يد الصيدلي، وهو يأمر ابنيه بأكل تفاحة الساعة الخامسة بعد الظهر، لأن تفاح لبنان أفضل من كل الأدوية. يأكل الولدان التفاح الممزوج برائحة البن، وهما يريان كيف يلحس والدهما شفتيه، قبل أن يقول إنه حان موعد الذهاب إلى المقهى.

هناك في المدينة الفرنسية البعيدة، شعر كريم بعذاب الرائحة التي اختفت. قال لبرناديت عن رائحة التفاح والبن، لكنه عجز عن وصفها، كيف نصف الرائحة لمن لم يشمها أو يتذوقها. اكتشف كريم عجزه عن الكلام لأنه لا يستطيع أن يترجم ذاكرته وتوتر الحنين الذي يفترسه في كلمات، لينتهي بعد ذلك إلى اكتشاف أن ممارسة الحب ليست إلا ترجمة للكلام، وانه حين ينتهي الكلام ينتهي الحب.

العاشق كالمترجم، ينتقل من كلام اللسان إلى كلام الجسد، كأنه يترجم الحكي ويعيد تأليفه، هذه هي حكايته مع غزالة. حين شعر بحراب الغواية تنغرس في ظهره، انطلق لسانه، وبدأ يحكي، روى لها حكايات مرحلة الدراسة في فرنسا، وكيف كان يكرع النبيذ كأنه يشرب الماء. روى عن أنواع الأجبان التي لا تنتهي، وحين قالت له إنها تحب اللحم الأبيض، هكذا يسمون الجبن في قريتها، جاوبها انه يفضل اللحم الأسمر وامسك بها من زندها لكنها تملّصت منه، فلحق بها، قبّلته على شفتيه، وهربت إلى المطبخ.

أخرج من البرّاد تفاحة تفوح برائحة العفونة، شعر بالغثيان، رماها في سلة المهملات. وقف في المطبخ لا يدري ماذا يفعل. كانت العتمة ترتجف على ضوء القداحة الهزيل الذي أحرق أصابعه، وكان كريم جائعاً.

عاد إلى الصالون، شرب من كأس الويسكي وقرر أن يتوقف عن الانتظار.

لم يكن ينتظر مكالمة من غزالة، افتتانه بها تلاشى حين شعر بالخوف من زوجها، لكنه كان ينتظر منى وهو يعلم أنها لن تتصل.

لم يقل لغزالة مرة واحدة انه يحبها، كان يعتقد وهو يتلوى بين يديها في فراش

اللذة انه يمارس الجنس، ولم يتنبه إلى الحب الذي جعل لسانه ينطق إلا في النهاية، حين هدأ خوفه ليكتشف أنه كان مخدوعاً.

وفجأة دخلت منى إلى حياته من دون مقدمات.

التقى بها وبزوجها المهندس المعماري أحمد الدَكيز في منزل شقيقه نسيم، وهناك رأى خرائط المستشفى للمرة الأولى، واستمع إلى مشاريع إعادة إعمار بيروت، وسمع حكاية غرائبية عن أصل العائلة الطرابلسية الإفرنجي. قال لمنى إنها سحرته، فسمع رنين ضحكتها وهي تقول إنها لا تريد سماع كلمات الحب، لأن كلمات الحب متشابهة وتثير سأمها.

لم يتوقف كريم عن كلام الحب مع منى، رغم أنه كان يعرف أنه سقط في عشق غزالة، كأنه كان يتداوى من غزالة بمنى، ويتداوى من صمت هند بصخب غزالة.

لا يعرف كريم أن يروي كيف انتظمت تلك العلاقة الثلاثية وسط غبار بيروت، ولا كيف استطاع قلبه أن يحتمل ذلك العصف العاطفي وسط عواصف الحرب الأهلية المتجددة، لكنه يجلس الآن وحيداً، لا رفيق له سوى كأس الويسكي، في انتظار مكالمة هاتفية لن تأتي.

لماذا عاد إلى بيروت؟

الآن يستطيع أن يقول إن حمّى العودة ضربته، لحظة تلفن له شقيقه وحدثه عن مشروع المستشفى. لكن كيف استطاع أن يصل ما انقطع في روحه منذ عشر سنين في لحظة واحدة؟ برناديت أصيبت بالدهشة وهي تستمع إليه:

«هل تعتقد أنني والبنتين سوف نذهب لنعيش في الجحيم اللبناني؟ هل فقدت عقلك، أم انك تريد أن تتركنا وتتزوج امرأة لبنانية تعاملها كخادمة وتنجب لك صبياً؟ أنا c'est fini، لا أولاد بعد الآن، جسدي تهدّل، انظر إلى الشقوق في بطني، وأنت ككل الرجال الشرقيين تشعر بالغيرة من أخيك لأنه أنجب ثلاثة صبيان، وتريد ولي العهد».

لم تكن برناديت على حق، فكريم لم يأتِ إلى لبنان من أجل هدف محدد، ذهب لأن مرض الحنين إلى بيروت جعله عاجزاً عن التفكير، وعن اتخاذ القرار العقلاني

الذي كانت تنتظره زوجته.

«ما معنى القرار العقلاني»، قال لها، «لا يوجد شيء اسمه قرارات عقلانية حين يتعلق الأمر بروح الإنسان». قال لها إن روحه يؤلمه، وإن وجع الروح هو أشد أنواع الوجع، لكنها قالت إنها لم تعد تفهم عليه، وبكت.

قال لبرناديت مرة إنه لا يستطيع تحمل الدموع، قال لها إن دموعها تذكّره بأمه التي ماتت حين كان في الخامسة، قال إنه لا يذكر من أمه سوى الدموع التي كانت تتساقط من عينيها وتنتشر على وجهها الصغير الأبيض، وعندما أخذوه مع شقيقه من البيت لينامًا عند الجيران، وقالوا له إن أمه ماتت، حلم في تلك الليلة بالدموع، رأى أمه تبكي وتغرق في دموعها. صارت دموعها ماء يعلو ويعلو حتى ابتلع السرير والغرفة وكلّ شيء.

لم يعد هذا الكابوس إلى مناماته إلا في فرنسا، حين ذهب مع زوجته لزيارة أهلها في ليون، هناك شعر بالغربة والوحدة. قال لبرناديت إن أهلها يعاملونه كأنه أجرب، وأنهم عنصريون، فضحكت المرأة وقالت إنهم هكذا، وإن ما بدا له عنصرية ليس سوى مسافة يضعها أهلها حتى مع أولادهم، وإن عليه أن يتخلى عن خياله الشرقي الخصب، كي يتأقلم مع وطنه الجديد وحياته الجديدة.

في تلك الليلة، عاد كابوس الدموع، وشعر بالوحدة القاتلة، اقترب من زوجته النائمة إلى جانبه كي يحتضنها، فابتعدت بحركة لا إرادية، حاول أن ينهض من الفراش ويذهب إلى المطبخ بحثاً عن شربة ماء فلم يجد طريقه وسط العتمة، أغمض عينيه كي ينام فرأى عيني أمه المذهولتين بالدموع. في صباح اليوم التالي قال لبرناديت إنه يريد العودة إلى بيته في مونبلييه.

عاد حاملاً معه منام الدموع، لا يدري لماذا استيقظت أمه فيه فجأة، ما معنى أن يستيقظ الأموات في الأحياء؟ وما معنى أن نحمل الأموات في قلوبنا، فيصيروا جزءًا من حياة لم نعشها؟

لم يرو الحكاية لزوجته، لا يدري ماذا جرى له بعد الزواج. في البداية، أي في المرحلة التي يطلق عليها الشعراء اسم «أوّل الحب»، كان لسانه ينطلق في كل

شيء، يترجم عبارة «على راسي» إلى الفرنسية، ويقول لها مطيعاً sur ma tete كي يستمتع برنين الضحك الذي كان يخرج من بين شفتي برناديت، وفجأة حلّ الصمت، لا لم يكن الصمت مفاجئاً، زحف الصمت زحفاً، وبدأ يحتل مساحة علاقته بالمرأة البيضاء التي عشقها منذ النظرة الأولى حين التقيا في بار Tex Mex.

بدأ يشعر أن الكلمات تخونه، وأنه عاجز عن الاستراحة في اللغة الفرنسية. فالكلام، كما كان يقول والده، هو مساحة يستريح فيها الإنسان. كان الرجل، حين يجلس مع ابنيه إلى مائدة العشاء، يطلب منهما الكلام، «سلّوني»، كان يقول، وكان على الشقيقين رواية حكايات المدرسة، بينما يجلس الأب مسترخياً على مائدة الحكي.

لم يكن في استطاعته أن يقول لبرناديت «سلّيني»، ولم يكن قادراً على صوغ عباراته ضمن جمل مضبوطة تراعي أذني المرأة التي لم تكن تطيق سماع الشتائم بالفرنسية أو بالعربية، فبدأ ينزلق إلى الصمت، وبدأت تهويمات الخيانة تلوح في حياته.

لم يخطر في باله أن برناديت تستطيع أن تخونه، لا يدري من أين جاءه هذا اليقين الذي سرعان ما تلاشى، لكنه لم يهتم. عندما لا تغار فهذا يعني أن الحب مات، وهو لم يشعر بالغيرة حين روت برناديت أنها خرجت مع طبيب سويسري كان في زيارة إلى مونبلييه، اكتفى بالابتسام، فجن جنونها، قالت إنها تكذب عليه لأنها تعرف أنه يخونها، وتريد أن تستثير غيرته، وأنه لم يعد يحبها، وبكت.

كان كريم متأكداً من أنها تكذب، لكنه لم يحتمل الدموع، جلس أرضاً إلى جانبها وقال إنه يحبها وكاد أن يخبرها حكايته مع منام الدموع، لكنه لم يفعل. شعر بالعجز يزحف من حوله، وسمع صوت الصمت.

لكن مع غزالة كان يحكي، ومع منى وحكايتها الغريبة مع صديقها الإيطالي، كان يتغرغر بالكلام. لا يدري كيف تدفق الكلام منه في بيروت، كأن بئر الصمت انفتح، وانقشعت الأشياء.

منذ وصوله إلى بيروت وهو يرى. قال لمنى إنه يري الأشياء، لأن الدنيا هناك

كانت مغلّفة بالضباب. لكن سحر بيروت كان في نعومة جلد غزالة، من يصدّق أن خادمة آتية من قرية نائية وتعيش في كامب مار الياس، وسط الفقر والتسول والجنون، تتجلّى عن نعومة مدهشة لم ير ما يشبهها على أجساد النساء اللواتي عالجهن من الأمراض الجلدية.

ثم اكتشف السر، إنه الحب، قال لها عن الحب الذي يرقق الجسد ويصفّي الجلد ويأخذ الروح إلى موج السماء، فضحكت. وعندما اكتشف الخدعة لم يشعر بالشوك في حلقه، مثلما يشعر الرجال المخدوعون، بل أحس كيف انزاح حجر الخوف عن صدره. الخوف ذلّ، وبعدما تراجع الخوف، وانتهت الحكاية إلى ما انتهت إليه، صار كمن يقيم على حافة البكاء.

لا يدري كريم لماذا فكّر بكلمة «كانت»، وهو يجلس في مقعده في طائرة البوينغ ٧٠٧، المتجهة من مطار أورلي في باريس إلى مطار بيروت. تخيّل مشهد المدينة التي غادرها منذ خمسة عشر عاماً، رآها كأنها كانت. كأنها شيء من ماضٍ لا يمكن استعادته، لكنه عائد إليها. لم يستخدم كلمة عائد حين أخبر زوجته بقرار بيروت، قال إنه ذاهب إلى المدينة كي يبني مستشفى. لكنه كان يعلم أنه سيرجع إلى مكان لم يعد موجوداً. أغمض عينيه فرأى الجملة مكتوبة أمامه: «كانت بيروت».

فتح عينيه داخل الطائرة، ليكتشف أن زوجته تقف أمامه وتهزّه من كتفيه، كأنها توقظه من النوم. كانت المرأة تشبه برناديت، بياضها ساحق، وعيناها صغيرتان. قالت المضيفة إن الطائرة تستعد للهبوط، وطلبت منه تجليس مقعده، وربط حزام الآمان.

حين عانقه شقيقه في المطار شم رائحة الزعتر، وضربته ارتعاشة الحنين. استعاد في شقيقه نسيم صورة المرآة التي لاحقته طويلاً، كان يرى في شقيقه التوأم صورته التي لا يريد أن يراها، لكنه لم يشمّ فيه يوماً رائحة الزعتر. برناديت قالت له في صباح اليوم التالي بعد لقائهما إنها تشم رائحة الزعتر. أجابها إنه لم يأكل زعتراً منذ زمن طويل، فقالت ضاحكة «أنت من لبنان، أنت لبناني قلت لي، هذه رائحة اللبنانيين».

قال لها إن رائحة لبنان هي التفاح، «أي تفاح»؟ جاوبت «إنه زعتر thym، هل تعرف معنى الكلمة؟ وأنا أحب الزعتر».

رجلان على مشارف الأربعين، يشمان رائحة الزعتر ولا يبكيان. كان الرجلان يبحثان عن الكلام، فلم يجدا سوى كلمات جاهزة، كالتي تُقال كي تعبئ فراغات الصمت. صعدا في سيارة الفولفو السوداء، أدار نسيم محرك السيارة فصدح صوت فيروز وهي تغني «حبيتك بالصيف، حبيتك بالشتي»، التفت نسيم إلى شقيقه العائد وقال له إنه اشترى كاسيت فيروز من اجله. «بعدك بتحبها»؟ سأل، وقبل أن يأتيه الجواب قال نسيم انه لم يعد يحبها، «صارت متل لبنان، كلهم بيقولوا انهم بيحبوه، ولما كل الناس بتحبك يعني ما حداً بيحبك، هيك لبنان، كلنا منحبه بس ما حدا بيحبه، متل الحرب كلنا ما منحبها وكلنا منحارب. ومتل بيك الله يرحمه»... قال نسيم.

«ما تحكي عن بيي هيك»، قال كريم.

«ليش إنت شو بيعرفك»...

«شو هو يلّي ما بعرفه، ما فهمت».

«على مهلك بتفهم».

ما هذا الاستقبال الغريب، هل استدعاه شقيقه إلى لبنان كي يهينه ويصفّي الحساب القديم معه. اعتقد كريم أن المسألة سوِّيت نهائيا عندما تزوج نسيم هند. أراد أن يقول لشقيقه على التلفون إنه انتصر في النهاية، لكنه اختنق بكلماته.

كريم لا يريد فتح الدفاتر القديمة، لكن لماذا عاد إلى بيروت إذاً؟

كيف ستفهم هند عودته، «أخيراً نجح الكلب واشترانا معاً»، قال لهند.

«هو لم يشتر إلا لأنك بعت» جاوبته.

كانت شمس تموز تحترق على إسفلت المدينة، أحس كريم بالاختناق، لكنه لم يسأل شقيقه إلى أين سيأخذه، كان متيقناً من أنه ذاهب إلى بيت والده الذي غادره نهائيا حين كان في الخامسة والعشرين، لكن السيارة مرت أمام الصيدلية التي تقع في أسفل المبنى وتابعت سيرها.

«هند ناطرتنا وحضرت لنا كاس عرق وشوية مازة».

«أنا تعبان، خلّيني روح على البيت وبكرا منتعشى سوا».

«حماتك عملت كبة نيّة كرمالك، وناطرتك عنا».

«حماتي»!

«كانت حماتك وصارت حماتي، وين المشكلة».

بدأ الكلام في المكان الخطأ، كريم لم يأتِ كي يفتح الدفاتر العتيقة، ولا كي يرى متعة الانتقام على وجه شقيقه الأصغر، جاء لا يدري، لكنه أراد صفحة جديدة في حياته، أو هكذا أوحى لنفسه. قال لزوجته وهو يصّور ابنتيه كي يتمرن على الكاميرا التي اشتراها، إنه يريد أن يأكل بيروت بعينيه، يريد أن يصورها ويعتذر لها، ويحبها من جديد.

قرأ في عينيّ زوجته الكلام الذي قالته له منذ الأيام الأولى للقائهما، «أنت رومنطيقي وعاطفي». معنى الكلام تغيّر الآن. في ذلك الماضي البعيد الذي يبدو لكريم وكأنه ينتمي إلى زمن آخر، كانت تقول «رومنطيقي» وتضحك الشهوة التي ترفرف على عينيها، أما الآن، فالكلمة تأتي ناشفة ومُرة.

شربوا العرق وأكلوا الكبة وسط صمت، لم ينقذهم منه سوى صخب الأولاد وشيطنتهم.

هند لم تتكلم، والدتها سلمى المتشحة بالسواد بدت امرأة أخرى. عندما دخل كريم إلى البيت، واحتضنته المرأة، لاحظ السواد الذي يغطي قدميها ويصعد إلى كل أنحائها، كانت تلبس جوارب من النايلون السميك، فيتوشح الأسود على ركبتيها، وفخذيها، وتبدو كالأرملة.

لم تخلع سلمى السواد منذ وفاة زوجها شاباً بالسكتة الدماغية، تاركا لها ابنة وحيدة، وثروة صغيرة جمعها من عمله في مشروع تشجير أبو ظبي. لكن المرأة الجميلة البيضاء نجحت في جعل فساتينها علامة على بياضها الناصع الذي يشعّ من فخذيها، وزنديها. بعد عام على وفاة زوجها خلعت الجوارب السوداء، لكنها لم تخلع اللون الأسود.

عندما التقى بها كريم، للمرة الأولى في صيدلية والده، أدهشه جمالها، ورأى ابتسامة الظفر التي كانت طريقة نصري شمّاس في إعلان فتوحاته النسائية الجديدة. وحين التقاها بعد ذلك في منزلها، في زيارته الأولى إلى هند، شعر دبيباً خفياً يختلج في جسده، وقارن بين وضوح نظراتها التي تخفي الشهوة كي تظهرها، وبين انكسار عيني هند الصغيرتين، وجسدها المنمنم، وسمارها الذي يلتمع كأنه شرب الشمس.

السكر المطحون الذي يبدو وكأنه يترقرق على فخذي سلمى اللذين ينبثقان من سواد فستانها القصير المشقوق فوق الركبة، سرعان ما تلاشى، لأن المرأة بددت شكوك الفتى بأن تكلمت بنوع من الاستهزاء عن أعشاب والده السحرية التي تجعل النبات يشتعل بالحياة. كان كريم متأكداً من أن والده يخترع حكاياته الغرامية كي يؤنس وحدته ويقاوم الكهولة، إلى أن فتح شقيقه نسيم الصندوق المقفل الموضوع على العليّة، فرأى الصور وضربه شعور من القرف والحزن.

لماذا نضحك من حكايات العشّاق، بينما نقوم نحن بما يشبهها. الحب يجب أن لا ينكشف للآخرين، لأن الآخرين لا يستطيعون تقبّله، إلا إذا كانوا هم أبطاله. شعر بالتقزز من والده، لكنه شعر بالأسى على نفسه، كيف يقول ولمن يقول حكايته مع غزالة التي انتهت إلى ما هو أسوأ من الفضيحة؟ كيف يقول عن مشاعره المتناقضة وقلبه الذي كان يتقلب به ويأخذه إلى حيث لا يدري.

تذكر ذلك البيت من الشعر القديم وابتسم.

فجأة اشتعل البيت بضوء الكهرباء، سمع خرير البراد ورأى نفسه جالساً على الكنباية، حاملاً كأس الويسكي الفارغ بيده، واكتشف أن حالته مضحكة. ملأ كأسه من جديد وقال بصوت مرتفع:

«وما سُمي الإنسان إلا لنسيهِ ولا القلبُ إلا أنه يتقلّبُ».

إنها الكهرباء، يكفي أن تعود الكهرباء حتى ينزاح كابوس الأفكار السوداء. قرر كريم أن ينظر إلى حياته بوصفها مزاحاً، لا شيء يستحق العذاب، لأن حقيقة الأشياء ملتبسة، أحس بحنوّ مفاجئ نحو والده، وهو يراه يموت مرمياً وسط الصالون، وضحك من لا معنى المعاني.

قال لمنى إن لا معنى لأحزان الفراق، قبّلها على شفتيها المبلولتين ماء وضحك وهو ينام معها للمرة الأخيرة. قال إننا يجب أن نجعل المرة الأخيرة أجمل من المرة الأولى، ذكّرها كيف كانت خجولة وخائفة، وكيف كانت لغة الجسد خرساء، قال لها يجب أن لا تنتهي العلاقة بالخرس كما بدأت، ونام معها قبل أن تجد وقتاً لتنشّف جسمها. أزاح المنشفة وأخذها وهو يضحك.

جاءت منى فجأة، كانت السابعة صباحا، فتح كريم الباب فرأى منى تقف مترددة بثياب الرياضة الصباحية المبقّعة بالعرق.

«جيت ودعك لأننا مهاجرين على كندا بعد أسبوع».

دخلت إلى الصالون، تركها كريم وذهب إلى المطبخ، وضع ركوة القهوة على النار، وسمع صوت الدوش في الحمام.

وقفت بالمنشفة البيضاء التي تغطي جسدها ولا تظهر سوى قدميها الرفيعين الأبيضين، وقالت إنها حزينة.

لم يسألها عن سبب حزنها، ضحك واقترب منها، وقال لها إن الجسم المبلل بالماء هو أفضل طريقة للوداع.

أضاء جميع لمبات البيت، وذهب إلى المطبخ، أخذ كمشة زعتر ورشها على رغيف خبز ناشف والتهمها.

كل المسألة أنني شربت كثيراً من دون أن آكل. خلص، هالقصة خلصت، وبكرا بفرنسا ما في قصة، ما لازم يكون في قصة.

استرخى على الكنباية، وبدأ يشعر بدبيب التنمّل الذي يسبق النوم، انتفض مذعوراً، ربط المنبه على الساعة الرابعة والنصف صباحاً، وغرق في نوم عميق.

انحنى كريم شمّاس كي يلتقط حقيبته من صندوق سيارة المرسيدس العمومية السوداء التي أقلته إلى مطار بيروت في طريق عودته إلى مونبلييه. فجأة التمعت السماء وبدأ الدويّ. أحنى السائق رأسه كي يتقي قذائف مدافع الهاون التي بدأت

تتساقط على طريق المطار.

استدارت السيارة فجأة، سمع كريم أزيز الدواليب وشعر بأن كل شيء يرتجّ. أغمض عينيه واستعد للموت. سمع السائق يصيح أنه عائد إلى بيروت. فتح عينيه وطلب منه أن يكمل ويوصله إلى المطار.

توقفت السيارة فجأة، وخرج صوت السائق من بين أزيز العجلات يقول إنه لا يستطيع، «إذا بتحب تكفّي يا أستاذ دبّر سيارة تانية، أنا عندي أولاد وبدي ارجع على بيتي».

رأى كريم نفسه كأنه شخص آخر. نزل من السيارة، انحنى على الصندوق، أخرج حقيبته ومشى وسط شارع عريض ملئ بالغبار والبقايا، وفكر انه وصل إلى نهاية العالم.

هكذا انتهت المغامرة البيروتية، طنين في الأذنين، وشعور بأنه يتكئ على ظله.

وعندما تراءى له مبنى مطار بيروت، بواجهته المهشّمة، التفت إلى الوراء وبكى.

فصل من رواية تحمل العنوان نفسه قيد النشر